الفصل السابع

الغزوة الاستعمارية لليبيا

١ - الحركة السنوسية .
التكوين الاجتماعى لليبيا .
نشأة الحركة السنوسية .
الحرب بين السنوسيين والفرنسيين .
٢ - الحرب الطرابلسية الايطالية .
المقاومة فى طرابلس .
المقاومة فى برقة .
معاهدة « أوشى » فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ .
٣ - المقاومة فى أثناء الحرب العالمية الأولى .
(أ) الجبهة السنوسية :
- الحرب بين السنوسيين والانجليز .
- اتفاق عكرمة ١٦ أبريل ١٩١٧ .
(ب) الجبهة الطرابلسية والحرب ضد الايطاليين :
٤ - قيام جمهورية طرابلس ١٨ نوفمبر ١٩١٨ .
- المفاوضات بين الطرابلسيين والايطاليين .
- صلح سوانى بن يادم فى ٢١ ابريل ١٩١٩ .
- اتفاق الرجمة بين السنوسيين والايطاليين (٢٥ أكتوبر ١٩٢٠) .
٥ - الوحدة بين طرابلس وبرقة .
- قيام الفاشية فى ايطاليا والقضاء على المقاومة فى طرابلس .
٦ - مقاومة عمر المختار .

١ - الحركة السنوسية

التكوين الاجتماعى لليبيا :

تكون التركيب الاجتماعى لليبيا تحت الاحتلال الإيطالى من عنصرين رئيسيين هما العرب والبربر ، بالإضافة إلى عنصر زنجى فى الجنوب فى فزان . وكان تأثير العرب يزيد فى المناطق الساحلية والشرقية ، ويقل فى الغرب والجنوب حيث يتزايد عنصر القبائل البربرية التى يتكلم معظمها العربية . وقد انقسمت القبائل العربية فى برقة تقسيمًا طبقيًّا ، فكان هناك قبائل « السعديين » التى تملك الأرض والماء ، وهناك « المرابطون » الذين يشتغلون فى الأرض ، وقد وصل النظام القبلى فى القسم الساحلى - حتى فى بعض الواحات الداخلية - حتى سنة ١٩١١ ، درجة من التحلل أدت إلى ظهور كبار الملاك الذين هم من أصل عربى غالباً ، وصغار الملاك ، الذين يعيشون فى علاقات شبه قنية . أما فى المناطق الداخلية ، والجبلية منها على وجه الخصوص ، فقد بقى فيها النظام القبلى الذى تسوده الملكية الجماعية للأرض والمراعى والماشية . كما ظلت بقايا من الرق فى الجنوب .

وفى طرابلس فى الغرب أدى نمو التجارة والمدن التجارية ، التى كانت مراكز إدارية وعسكرية للسلطات العثمانية ، ومراكز تجارية هامة على خط القوافل الممتد من نيجيريا والسودان إلى ساحل البحر المتوسط ، ومركز نشاط حركة تصدير الأغنام والصوف إلى مصر وإيطاليا - إلى ظهور طبقة بورجوازية تجارية طرابلسية إلى جانب الأسر الطرابلسية الإقطاعية المتصارعة . وقد أخذ هذا التكوين السياسى فى طرابلس يعبر عن نفسه بالمشاركة المتزايدة فى المؤسسات النيابية التى أنشأتها الدولة العثمانية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر .

فى الوقت الذى كانت تتبلور فى برقة التشكيلات السنوسية (أو الزوايا السنوسية) التى كانت برغم أساسها الدينى تشكيلات سياسية وحربية .

نشأة الحركة السنوسية :

كانت علاقة القبائل العربية والبربرية بالسلطنة العثمانية علاقة عصيان وثورة ، منذ أن أسقطت السلطنةُ الأسرة القرامانلية التى كانت تحكم البلاد باسمها ، وأعادتها إلى الحكم العثمانى المباشر عام ١٨٣٥ ، ثم قامت الحركة السنوسية لتلعب دورا هاما فى العلاقة الليبية العثمانية .

وكانت هذه الحركة قد تأسست على يد محمد بن على السنوسى الذى ولد فى مستغانم بالجزائر ١٧٨٧ ، وتتلمذ فى مكة على يد السيد أحمد بن إدريس ، ثم انضم إليه عدد كبير من أتباعه بعد مماته ، فأسس فى جبل أبى قبيس فى مكة فى عام ١٨٣٧ أولى زواياه ، ثم انتقل إلى برقة فى عام ١٨٤٠ ، تحت ضغط السلطات الحكومية ، حيث أسس زاوية البيضاء ، التى تعد أم الزوايا ، والمكان الذى انبعثت منه الدعوة السنوسية .

وفى الفترة التالية ، أسس محمد بن على السنوسى الزوايا فى جميع أنحاء برقة ، وفى مصر وبلاد العرب والسودان . وعندما بدأت الحكومة العثمانية تخشى من سلطانه ، وأحس هو بالخطر ، نقل مقر دعوته من الزاوية البيضاء القريبة من الساحل إلى واحة جغبوب بالداخل .

ولم تلبث هذه الزوايا ، التى كانت عبارة عن مراكز نشاط اجتماعى وديني ، أن أصبحت مراكز حكومية تقريباً بفضل النظام المتقن الذى جمع بينها ، وتمتع شيوخ السنوسية بنفوذ عظيم فى الأقاليم التى توجد بها زواياهم ، على حين اجتمع السلطان فى يد شيخ الزوايا الأعلى وإمامها مؤسس السنوسية ،

وأصبحت زاوية الجغبوب قصبة « الإمارة السنوسية » ، وصار فى وسع صاحب هذه الإمارة جمع أربعين أو خمسين ألف مقاتل عند الطلب .

ولم يقتصر نشاط السنوسية على برقة ، بل امتد إلى القطر الطرابلسى ، ووجدت السنوسية أتباعاً كثيرين لها من بين الطرابلسيين ، ثم قوى نفوذها فى منطقة « سرت » ، وأنشأت زاوية هامة فى « النوفيلية » ، ثم ما لبث نفوذها أن امتد إلى الفزان . ولكنها لقيت مقاومة من الزعامات الإقطاعية فى طرابلس التى خشيت من أن يؤدى تزايد نفوذ السنوسية إلى القضاء على نفوذهم .

ولم تلبث الدولة العثمانية أن آثرت الاعتراف بالإمارة السنوسية ، جرياً على عادة السياسة العثمانية التقليدية فى الاعتراف بالإمارات التى لا يكون فى وسعها إخضاعها بالقوة ، طالما ظلت منضوية تحت لواء الخلافة العثمانية . وقد ازداد هذا الاعتراف عندما أصبح السلطان عبد الحميد يتخذ من الدعوة إلى « الجامعة الإسلامية » قاعدة لسياسته العربية والشرقية ، وصار يرى فى بقاء الإمارة السنوسية ، ذات السلطان فى الأقاليم الممتدة من شاطئ البحر المتوسط شمالا إلى بحيرة تشاد جنوبا – ما يصون الأقطار الليبية من عدوان الدول المستعمرة . فأصبحت السلطة الحقيقية ، الروحية والزمنية ، فى أيدى شيوخ الزوايا بدلا من المتصرفين والولاة الأتراك ، ثم نقل السيد المهدى مقره من جغبوب إلى واحة الكفرة ١٨٩٥ ، التى أصبحت مركز نشاط السنوسية فى الصحراء الكبرى وأفريقيا الفرنسية .

الحرب بين السنوسيين والفرنسيين :

على أن الحرب لم تلبث أن نشبت بين السنوسيين والفرنسيين الطامعين فى امتلاك السودان الغربى ، فعندما وصل الفرنسيون إلى شاطئ بحيرة تشاد لاحتلال كانم ، التى كانت بمثابة مخفر أمامى للسنوسيين ، استعد السنوسيون

لملاقاتهم تحت قيادة سيدى البرانى وعمر المختار ، واستطاعوا تحقيق بعض الانتصارات ، ولكن معدات الحرب الحديثة كانت لها الغلبة فى النهاية ، وهزم سيدى البرانى فى معركة دامية فى يناير ١٩٠٢ .

وقد استمرت الحروب والاشتباكات بين السنوسيين والفرنسيين بعد ذلك عشر سنوات ،ولكن الفرنسيين اضطروا إلى الوقوف عند حدود برقة الجنوبية بسبب الارتباطات الدولية ، حيث كانت منطقة برقة وطرابلس من نصيب النفوذ الإيطالى بمقتضى التوكيدات بين الدولتين فى ديسمبر ١٩٠١ .

٢ - الحرب الطرابلسية الإيطالية

على هذا النحو كان السنوسيون عند قيام الحرب الطرابلسية الإيطالية فى ٣ أكتوبر ١٩١١ ، هم القوة الوحيدة الضاربة التى يمكن الاعتماد عليها فى الدفاع عن البلاد التى نشأت فيها دعوتهم ، والتى كانت مقر إمارتهم . وفى الحق لقد كان الأتراك عاجزين عن الدفاع عن البلاد ، وكانت التحصينات الساحلية فى طرابلس وبنغازى وغيرها من المدن مجهزة بمدفعية قديمة ضعيفة ، كما صدرت التعليمات بالفعل إلى القوات التركية بتجنب الصدام المسلح مع القوات الإيطالية ، لتسهيل الوصول إلى حل وسط مع إيطاليا .

على أن العدوان الإيطالى لم يلبث أن فجر حركة مقاومة على جانب كبير من الأهمية فى برقة وطرابلس . فقد أخذت تتقاطر جموع السنوسية إلى ميادين القتال الشمالية ، خصوصاً فى برقة . لبدء القتال ، الذى استمر دون هوادة مدة ثلاثين عاماً ، فى الوقت الذى كان سكان المدن الساحلية كطرابلس وبنغازى يجمعون المعدات والذخائر التى تتركها القوات التركية فى أثناء تراجعها لاستخدامها فى المقاومة . وأخذ المتطوعون يتدفقون على ليبيا من جميع البلاد الإسلامية ، حتى بلغ عددهم فى بداية عام ١٩١٢ حوالى الستة عشر ألفاً . وكان على رأسهم الضباط والشبان العرب الذين أنشئوا فى الآستانة ، بعد إعلان الدستور العثمانى ، الجمعيات والنوادى السياسية العربية ، ومنهم عزيز المصرى ، الذى سافر متنكراً إلى ليبيا ، وعبد الرحمن عزام ، وصالح حرب ، كما أرسل الأتراك نخبة من ضباطهم ، منهم أنور بك الذى تولى القيادة العامة فى برقة ، ومصطفى كمال بك « كمال أتاتورك » .

المقاومة فى طرابلس :

كانت الحاميات العثمانية الضعيفة قد انهارت تحت الهجوم الإيطالى فى طرابلس وبرقة . ففى طرابلس حيث كان يرابط ستة آلاف جندى تركى مسلحين بأسحة قديمة وبالسيوف ، أصدرت الحكومة العثمانية أوامرها إلى قائدها بإخلاء طرابلس ، والمقاومة خارج المدينة فقط ، ثم الانسحاب جنوباً إلى سهول غريان . وفى برقة احتل الإيطاليون درنة وطبرق وبنغازى ، وأكرهوا الحاميات العثمانية على الانسحاب إلى الداخل . على أن القيادات القومية والوطنية الليبية همت لتحمل تبعات الجهاد ، وأخذت تتدفق جحافل المجاهدين السنوسيين على المعسكرات العثمانية حتى أحيت أملها فى المقاومة . ولم تلبث أن ظهرت بطولات عربية هامة استطاعت تأجيج حماس الجماهير وتنظيمها للقتال .

ففى « الخمس » قاد حركة المقاومة بشير بك السعداوى الذى كان رئيساً لكتاب مجلس الإدارة ، واتخذ « ساحل آل حامد » مركزاً له يرسل منه الدعوة إلى القبائل يحثهم على الجهاد . وقد استطاع حشد قوات كبيرة قاومت الإيطاليين أربعة أيام رمنعتهم من النزول إلى الساحل ، ثم واصلت المقاومة بعد نجاح الإيطاليين فى النزول فى البر .

وفى طرابلس ، حيث انسحبت القوات التركية إلى الداخل جنوبا حتى وصلت إلى « العزيزية » - ظهر فى ميدان الجهاد زعيمان من كبار الزعماء الطرابلسيين ، كان لهما أثر حاسم فى جمع القلوب المتمردة حول راية الجهاد ، وهما سليمان البارونى وفرحات بك .

وكان سليمان البارونى من الثوريين الطرابلسيين الذين عملوا ضد السلطان عبد الحميد ، متخذاً من مصر ميدانا لنشاطه . وحكم عليه بالأشغال الشاقة

المؤبدة ، ثم صدر عفو عنه ، ثم قبض عليه مرة ثانية ولم يفرج عنه إلا بعد تدخل وفد من شيوخ الطرابلسيين . وبعد إعلان الدستور العثمانى فى يوليه ١٩٠٨ عاد إلى وطنه طرابلس وانتخب نائباً عن الجبل فى مجلس المبعوثان العثمانى . وعندما وقع الاعتداء الطليانى على طرابلس ، كان يقضى عطلته فى بلده ، فهب للدفاع عن وطنه مع ألف من مقاتلى الجبل ، والتحق بنشأت بك قائد الحامية فى « عين زارة » ، ثم أغار مباشرة على « قصر الهانئ » « وسيدى المصرى » فى صباح يوم ٢٣ أكتوبر ١٩١١ . واستمر فى القتال مع الجيش العثمانى .

أما فرحات بك فهو محامى ذو ثقافة فرنسية تولى منصب القائمقامية فى إحدى جهات فزان ، وهى « الشاطئ » ، وبعد إعلان الدستور العثمانى مثل مدينة طرابلس نائباً فى « مجلس المبعوثان » ، وكان عند وقوع العدوان الإيطالى يقضى إجازته فى « الزاوية » ، فجمع عدداً عظيماً من المتطوعين من أهل الزاوية والعجيلات وزوارة ، وتوجه بهم إلى العزيزية ، فكان أول عربى جاء لنجدة العثمانيين .

وطوال شهر ديسمبر ١٩١١ والشهور التالية ، أخذت تتدفق على المعسكر العثمانى جماعات المقاتلين التى كان يتراوح عددها بين المائة والألف مقاتل ، من « نالوت » ، « وفصاطو » ، و« يفرن » ، « وغريان » ، و« سنوان » ، وأولاد سليمان من صحراء سرت بقيادة زعيمهم سيف النصر (وكان هؤلاء سنوسية) ثم الطوارق ، ومجاهدو الفزان بقيادة أحمد بن حسن ومهدى موسى .

المقاومة فى برقة :

فى ذلك الحين كانت حركة المقاومة فى برقة تتخذ شكلا خطيراً . فعلى أثر احتلال الطليان طبرق ودرنة وبنغازى استنفر الزعماء السنوسيون فى بنغازى

وغيرها شيوخ الزوايا للجهاد . فخرج السيد عمر المختار على رأس قبيلة العبيد المنتسبة لزاوية القصور ، يتبعه شيوخ الزوايا ، إلى القتال . وتولى الاشتباك مع الطليان خصوصا عند « بنينة » ، حتى جاء أنور بك إلى معسكر القيادة العامة فى درنة ، وعزيز المصرى إلى بنغازى . كما طلب السيد أحمد الشريف من كل عربى يبلغ الرابعة عشرة من عمره إلى الخامسة والستين الذهاب إلى ميدان القتال والخضوع لأوامر أنور بك بصفته نائب السلطان ، وانضم كبار السادة السنوسية إلى المعسكر العثمانى وعلى رأسهم السيد محمد إدريس والسيد محمد الرضا والسيد محمد عابد ، وبعد واقعة « الضبط » التى هزم فيها الإيطاليون ، ازداد وفود شيوخ الزوايا السنوسية فى درنة والبيضا وشحات وغيرها على رأس قواتهم ، وكانت كل قبيلة تقدم المحاربين وتجهيزاتهم . وافتتحت فى ضواحى درنة وبنغازى معسكرات محصنة ضربت حصاراً على الحاميات الإيطالية .

ولم تقتصر دعوة الزعماء الوطنيين على طرد المحتلين فقط ، بل وعلى الحصول على الاستقلال التام لطرابلس وبرقة . فمما له دلالة كبيرة فى هذا الشأن تأليف حكومة عربية ذات سيادة ، فى أثناء سير الحركة المعادية لإيطاليا ، فى صيف ١٩١٢ ، كانت سلطتها تمتد على مناطق طرابلس الوسطى والجنوبية . وقد توجه رئيسها سليمان البارونى إلى الحكومات الأوروبية طالباً الاعتراف بشرعية حكومته ، مؤكداً عزم سكان طرابلس وتصميمهم على مواصلة القتال من أجل استقلالهم حتى النهاية .

وحتى يناير ١٩١٢ ، وعلى الرغم من اشتراك معظم الزوايا فى المناطق المختلفة فى المقاومة المسلحة ضد المحتلين ، فإن قيادة السنوسية لم تكن قد قالت كلمتها بصورة علنية ، أملا فى اعتراف الإيطاليين بالاستقلال الذاتى للإمارة السنوسية ، والاعتراف بممتلكاتها . وكانت التعليمات قد صدرت لوحدات الحملة الإيطالية باحترام ممتلكات السنوسية تحاشياً لإثارة التعصب الدينى ، واستخدام كل الوسائل لحمل العرب على الوقوف موقف الحياد. على أن القيادة السنوسية لم تلبث أن قررت ، تحت ضغط الحركة الشعبية الواسعة التى

عمت طرابلس وبرقه ، إعلان كلمتها ، فأصدر السيد أحمد الشريف نداءً مشهوراً لأهل طرابلس وجميع العرب فى منتصف يناير ١٩١٢ ، حث فيه الطرابلسيين والبرقاويين على الجهاد المقدس ضد الكفار من أجل الاستقلال الوطنى ، وأعلن اعتزامه النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة كبيرة من المجاهدين .

وقد كان بسبب هذه المقاومة الشعبية أن طالت الحرب ، ولم تستطع القوات الإيطالية تقوية مواقعها فى طرابلس إلا فى نوفمبر ١٩١١ - يناير ١٩١٢ ، وظل وضع الإيطاليين فى بنغازى مهزوزًا حتى ١٢مارس ١٩١٢ ، أما فى درنة وطبرق ، فإن وضع الحاميات الإيطالية أصبح اعتبارا من نهاية نوفمبر حرجا جدا ، كذلك كان الوضع حرجا جدا بالنسبة للقوات الإيطالية فى مدينة الخمس . وقد اضطرت الحكومة الإيطالية إلى زيادة عدد قواتها حتى بلغت فى نهاية أكتوبر ٩٠ ألفا ، ولكن التعب والإعياء اشتد بين جنود الحملة وانتشرت فيهم الأمراض ، وأخذت تبرز صعوبات التموين . وظلت الحملة الإيطالية حتى ربيع ١٩١٢ بعيدة كل البعد عن الاستيلاء الفعلى على طرابلس وبرقة بنفس القدر الذى كانت عليه فى أول أيام الحرب .

معاهدة أوشى ١٨ أكتوبر ١٩١٢

فى ذلك الحين كانت الظروف الدولية تضغط على الدولة العثمانية للتوصل إلى صلح مع إيطاليا . وبالفعل بدأت المفاوضات فى لوزان فى ١٢ من يولية ١٩١٢ ، وانتهت فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ بتوقيع معاهدة « أوشى » (لوزان) ، التى سلمت فيها الدولة العثمانية طرابلس الغرب وبنغازى إلى إيطاليا . وقد رتب الطرفان العثمانى والإيطالى الأمر فى هذه المعاهدة بشكل يحفظ كرامة الطرفين على حساب الشعب الليبى ! .

فحتى لا يقال إن الدولة العثمانية سلمت طرابلس الغرب وبنغازى إلى

إيطاليا ، اتفق الطرفان على أن يبدأ السلطان باصدار فرمان يمنح الأهالى « المختارية التامة » - أى الاستقلال الداخلى التام - حتى يكونوا هم الذين استسلموا للطليان ، ثم تصدر إيطاليا بعد ثلاثة أيام قرارا ملكيًّا ، يستند إلى القانون الذى أصدرته فى ٢٠ فبراير١٩١٢ ، بوضع طرابلس وبنغازى تحت الحكم الإيطالى ، وتعلن فيه العفو العام ، واستمرار ذكر السلطان فى خطب الجمع والأعياد ويكون هناك ممثل للسلطان له سلطة لا تختلف فى حقيقتها عن سلطة القنصل العام ، ثم يتم التوقيع على المعاهدة التى تتضمن انتهاء الحرب ، وانسحاب الجيش العثمانى من طرابلس . وبالفعل صدر الفرمان العثمانى يوم ١٦ من أكتوبر ١٩١٢ ، ووقعت المعاهدة فى اليوم نفسه . وبهذه الصورة خرجت ولاية طرابلس الغرب ومصرفية بنى غازى من نطاق سيادة الدولة العثمانية .

على أن الوطنيين الليبيين فهموا من فرمان السلطان ما لم يكن يعنيه أصلا ، وهو منحهم الاستقلال الذاتى التام بمعناه الحقيقى ، الأمر الذى أمدهم بطاقة معنوية هائلة ، وأخذوا يتصرفون على هذا الأساس . ففى طرابلس الغرب عقد الزعماء الوطنيون الاجتماعات فى لواء الجبل العربى ولواء فزان ودرفلة ، وكلفوا سليمان البارونى بإعلان استقلالهم وتبليغه إلى من يلزم التبليغ إليه ، وتشكيل حكومة وطنية . وقد تولى سليمان البارونى رئاسة الحكومة الجديدة ، وقام بإخطار الدول ونائب السلطان فى طرابلس ، وأرسل وفدا إلى أوروبا للسعى فى اعتراف الدول بالحكومة الجديدة .

وأما القيادة السنوسية ، فقد اعتبرت الفرمان دعما نهائيا لأركان الإمارة السنوسية المستقلة ، حيث أصبح استقلال هذه الإمارة أمرا واقعيا من الناحية الفعلية والشرعية ، وانتقلت إليها حقوق السيادة فى طرابلس إلى جانب برقة .

وعلى ذلك فقد استمر النضال ضد الإيطاليين فى ليبيا كما كان الحال قبل توقيع معاهدة أوشى . على أن الوضع بالنسبة للإيطاليين كان قد تحسن ، فقد نص فى الأقسام السرية من معاهدة أوشى على ألا ترسل الحكومة العثمانية إلى

طرابلس الغرب وبنغازى أسلحة أو ذخائر أو ضباطا ، كما انسحبت القوات العثمانية التى كانت تساند المقاومة الوطنية فى طرابلس . وعلى ذلك فقد وجه الإيطاليون جهودهم ضد البارونى فى ميدان طرابلس ، واستطاعوا احتلال منطقة الجبل حتى نالوت والحدود الفرنسية ، كمااحتلوا غدامس ومزدة ، وزحفوا على الفزان . واستطاعوا إنهاء المقاومة الطرابلسية فى أواخر عام ١٩١٣ .

أما فى برقة ، حيث كانت مواقع السنوسية قوية ، فقد اختلف الأمر قليلا . فعندما تم الصلح فى أوشى ، حرص أنور بك على أن يترك بالبلاد مقاومة منظمة ضد الإيطاليين ، واستأنف عزيز المصرى بجنده النظامى العثمانى العمليات العسكرية ، وأمكن إلحاق هزيمة كبيرة بالقوات الإيطالية . ولكن بعد أن فرغ الإيطاليون من ميدان طرابلس ركزوا هجومهم على مواقع قوات الوطنيين ، وأمكنهم احتلال عدد كبير منها فى المدة من ١٢ أبريل حتى ١٨ يولية ١٩١٣ . وفى الوقت نفسه طلبوا وساطة الخديو عباس حلمى لإقناع السنوسيين بالكف عن الجهاد ، ولكن السيد أحمد الشريف أصر على جلاء القوات الإيطالية قبل التفاهم . وهنا طلبت الحكومة العثمانية إلى عزيز المصرى الانسحاب بمن معه من الضباط والجنود من برقة إلى السلوم لنقلهم إلى تركيا . فطلب الوطنيون منه تسليمهم الأسلحة والذخائر ، ولكن عزيز المصرى رفض ، فأرادوا الاستيلاء عليها بالقوة . ووقعت اشتباكات دامية بين الفريقين ، ولكن عزيز المصرى استطاع الوصول إلى السلوم ، وفى ١٦ من يولية ١٩١٣ بلغ الإسكندرية .

وهكذا تزايدات صعوبات الوطنيين ، فبعد انسحاب القوة التركية العاملة فى برقة والجبل الأخضر بكامل معداتها ، أصبحت البلاد خالية من وسائل الدفاع ومعرضة للهجوم . ولكن السنوسيين صمدوا برغم ذلك ، وأسندوا قيادة المجاهدين إلى السيد عمر المختار ، الذى شكل جيشاً للمقاومة ظل يقاوم الطليان حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

٣ - المقاومة فى أثناء الحرب العالمية الأولى

كان الوضع السياسى لليبيا عند نشوب الحرب العالمية الأولى هو الوضع الذى أرسته معاهدة أوشى فى ١٨ أكتوبر ١٩١٢ . وبمقتضاه - كما ذكرنا - منح السلطان العثمانى الأهالى الاستقلال الداخلى التام ، وأعلنت إيطاليا وضع طرابلس وبنغازى تحت الحكم الإيطالى ، مع استمرار ذكر اسم السلطان فى خطب الجمع والأعياد ، ووجود ممثل للسلطان لا تختلف سلطته عن سلطة القنصل العام . وقد اعترف الوطنيون الليبيون بالوضع الذى قرره لهم السلطان العثمانى ، ولكنهم رفضوا الوضع الذى أرادته إيطاليا ، ومن ثم نشب القتال بين الطرفين ، ولكن السياسة العثمانية قررت اتخاذ موقف الحياد .

(ا) الجبهة السنوسية :

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، وانضمت تركيا إلى ألمانيا ضد إنجلترا فى أول نوفمبر ١٩١٤ ، عاد الأتراك مرة أخرى إلى الاهتمام بالميدان الليبى بسبب مجاورته للوجود الإنجليزى فى مصر . ولكن لما كانت إيطالياقد ثبتت على الحياد حتى مايو ١٩١٥ ، فلم يكن فى نية السياسة التركية مساعدة الوطنيين الليبيين على التخلص من الحكم الإيطالى ، بل استغلالهم لمصلحتها ضد الوجود الإنجليزى فى مصر . وهو ما نشطوا له فى أعقاب نشوب الحرب ، حيث بعثوا بنورى بك إلى ليبيا لتولى القيادة العامة ، ولكى يسلم إلى السيد أحمد الشريف السنوسى كتاباً من القائد العام التركى يبلغه فيه أن السلطان محمد رشاد يعينه نائباً عنه فى أفريقيا الشمالية ، ويمنحه حق إعطاء الرتب والنياشين . وأكد هذا الخطاب الوضع الممتاز الذى كانت تشغله الإمارة السنوسية . وفى الوقت نفسه

عين السلطان الشيخ سليمان البارونى والياً على طرابلس الغرب ، وقائداً عاما لقواتها المجاهدة .

الحرب بين السنوسيين والانجليز :

ومع أن السيد محمد الشريف السنوسى قاوم فى البداية خطة الأتراك التى تطلب إليه مهادنة أعدائه الطليان ومهاجمة أصدقائه الإنجليز ، فإنه لم يلبث أن تورط فى الحرب ضد الإنجليز ، بفضل مؤامرة دبرها القائد العثمانى نورى وجعفر العسكرى ، فنشبت عدة معارك بينه وبينهم فى منطقة السلوم وسيدى برانى ، انتهت بمعركة فاصلة يوم ٢٦ فبراير ١٩١٦ فى مكان اسمه العقاقير شرقى سيدى برانى ، فاز فيها الإنجليز وأسروا جعفر العسكرى ، ودخل الجيش البريطانى السلوم يوم ٢٤ مارس ١٩١٦ ، وكانت فى يد السنوسيين ، وعرض الإنجليز الصلح على السيد أحمد الشريف الذى كان قد انتقل إلى الواحات لمواصلة النضال فى الجنوب ، ولكنه رفض الصلح لأنه كان يعلق آمالا على حركة على دينار فى دارفور ، ولكن الإنجليز ألحقوا به الهزيمة ، وأجبروه على الانسحاب إلى جغبوب فى بداية عام ١١١٧ ، ثم إلى العقيلة حيث ظل بها إلى أغسطس ١٩١٨ قبل انتقاله إلى الآستانة .

اتفاق عكرمة ١٦ من أبريل ١٩١٧ :

فى تلك الأثناء كانت زعامة السنوسيين قد انتقلت من ناحية الواقع إلى السيد محمد إدريس السنوسى ، ابن عم السيد أحمد الشريف ، الذى كان قد عينه على منطقة برقة ، ومركزه « أجدابية » ، ولم يكن موافقاً على الحرب ضد الإنجليز . فدخل فى مفاوضات معهم ومع الطليان ، أسفرت عن أول اتفاق من نوعه بين السنوسيين والطليان ، عرف باسم اتفاق عكرمة أو طبرق ، فى ١٦

أبريل ١٩١٧ ، وقد أعلن فيه الطرفان رغبتهما فى إنهاء القتال فى برقة على الوضع الفعلى الذى يحرزه كل منهما ، فيلتزم الإيطاليون بأن يقفوا عند « نقطهم » التى يحتلونها وقت إبرام الاتفاق فعلا ، فلا يجددون نقطا عسكرية زيادة على ما هو كائن ، ويفعل السنوسيون مثل ذلك من جانبهم أيضا . وبذلك تحددت منطقة نفوذ السيد ومنطقة نفوذ الطليان .

كذلك أبرم السيد محمد ادريس اتفاقا آخر مع الإنجليز فى عكرمة لتأمين الحدود بين مصر وبرقة طبقاً للقوانين والمعاملات الدولية ، والاعتراف بواحة جغبوب أرضاً مصرية مع بقاء الإدارة المحلية فى أيدى السيد محمد إدريس بطريق الوكالة .

(ب) الجبهة الطرابلسية والحرب ضد الايطاليين :

فى ذلك الحين كان الوضع فى طرابلس ، التى فصلها الإيطاليون عن برقة فى سبتمبر ١٩١٣ وأقاموا منها حكومة منفصلة ، يتخذ شكلا آخر . ذلك أن نشوب الحرب العالمية الأولى وانشغال الإيطاليين ، قد أتاح الفرصة للقيادات القومية لإعادة تنظيم صفوفها واستئناف الجهاد .

فبعد فترة من مهادنة الزعيم المصراطى رمضان شتيوى (السويحلى) للإيطاليين بسبب نزاعه مع السنوسيين ، انقلب عليهم فى ٢٨ أبريل ١٩١٥ ، فى أثناء حملتهم على معسكر المجاهدين فى « قصر بوهادى » ، مما أدى إلى هزيمتهم هزيمة ساحقة ، وتلى ذلك أن بدأت القبائل تشق عصا الطاعة على الإيطاليين ، فلم يبق لدى الطليان فى طرابلس الغربية سوى « زوارة » و « زنزور » . أما فى طرابلس الوسطى ، فقد انسحب الطليان من « مزدة » و « وغريان » . وفى طرابلس الشرقية صارت الكلمة للمجاهدين فى المنطقة كلها . وبعد تأزم الأمور فى برقة وإلحاح أهل البلاد فى إنهاء النضال ، انتقل نورى باشا ومعه

عبد الرحمن عزام إلى طرابلس فى أواخر عام ١٩١٦ لمواصلة الجهاد باسم الحكومة العثمانية ونزلا بمصراته على الزعيم السويحلى .

فى تلك الأثناء أرسلت تركيا سليمان البارونى لاستئناف الجهاد فى طرابلس ، وكان يحمل من السلطان فرماناً بتعيينه والياً على طرابلس وقائداً عاما لقواتها المجاهدة . وقد بدأ يعمل منذ قدومه لإنشاء حكومة عربية منضوية تحت لواء الآستانة ، وتدين لدولة الخلافة بالتبعية . ثم ما كاد يستقر به المقام بالبلاد حتى أصدر منشورا فى ١٧ أكتوبر ١٩١٦ أعلن فيه « إلحاق طرابلس الغرب بالولايات العثمانية ، وأخذ يتخذ الخطوات والترتيبات المدنية والعسكرية من أجل إنشاء حكومة منظمة تتولى الكفاح ضد إيطاليا ، ولكن هذه المهمة كانت صعبة بسبب النزاع بين الزعماء الليبيين خصوصاً بين رمضان السويحلى والسيد أحمد الشريف السنوسى من جهة ، ثم بين السويحلى وأحمد بك المريض زعيم ترهونة من جهة أخرى .

٤ - قيام جمهورية طرابلس ١٨ نوفمبر ١٩١٨

فى ذلك الحين ، ومع اقتراب الحرب العالمية الأولى من نهايتها ، أخذت الظروف تتهيأ لاعلان جمهورية طرابلس . ففى مايو ١٩١٨ أوفدت الحكومة العثمانية أميراً عثمانيا ، هو الأمير عثمان فؤاد ، إلى طرابلس ليتسلم القيادة العليا فى أفريقية الشمالية ، وإزالة الخلافات القائمة فى صفوف المجاهدين ، وتوحيد القيادة الوطنية . وقد نجحت الاجتماعات العديدة التى عقدها للزعماء فى الفترة من مايو إلى سبتمبر ١٩١٨ فى تحقيق هذا الغرض لحد كبير على مستوى الزعماء الطرابلسيين ، وإن لم تستطع تحقيق هذا الغرض على مستوى الزعامات الطرابلسية والسنوسية . ولذلك لم تكد تأتى الأنباء بقرب سقوط الآستانة ، حتى استقر الرأى ، تحت نصيحة عبد الرحمن عزام ، على إنشاء جمهورية فى طرابلس على نحو يكفل لكل زعيم من كبار الزعماء الطرابلسيين مكانا بارزا فى شئون الحكم على قدم المساواة مع سائر أقرانه أعضاء هذه الجمهورية . وفى يوم ١٦ نوفمبر أسفرت اجتماعات الزعماء فى « مسلاته » عن إنشاء الجمهورية بصورتها النهائية ، واختيار سليمان الباروني (عن الجبل الغربى) ، ورمضان السويحلى عن مصراته ، ومحمد المريض عن ترهونة ، وعبد النبى بلخير (عن ورفلة) ، أعضاء لمجلس الجمهورية .

وفى يوم ١٨ نوفمبر ١٩١٨ أصدر مجلس الجمهورية بلاغاً أذاعه فى أنحاء البلاد يعلن فيه تأسيس الجمهورية ، وقرر إرسال بلاغ بذلك فى اليوم نفسه إلى الحكومات الإيطالية والإنجليزية والفرنسية وإلى الرئيس ولسن . ودعا الحكومة الإيطالية إلى الاعتراف بحكومة الجمهورية الجديدة ، « وسد كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب إلى أن تحقق أملها المشروع » .

المفاوضات بين جمهورية طرابلس والإيطاليين :

على أن السلطات العسكرية حاولت تصفية الجمهورية عن طريق تشديد الأعمال العسكرية ضدها ، ولكن بسالة المجاهدين اضطرت الحكومة الإيطالية إلى طلب الدخول فى مباحثات صلح ، حيث طلب المفاوضون الطرابلسيون الجنسية الإيطالية بكل ما تعطيه من حقوق ، ولكن الإيطاليين رفضوا هذا الطلب ، فانقطعت المفاوضات ، وعمد الإيطاليون إلى معاودة الهجوم مرة أخرى . ولكن عملياتهم العسكرية التى استمرت حتى فبراير ١٩١٩ ، وأسفرت عن معركة غير حاسمة فى ٨ فبراير ١٩١٩ - توقفت ، بعد أن أثارت حملات عنيفة من جانب الصحافة الاشتراكية فى إيطاليا .

ولم تجد السلطات الإيطالية بدا من استئناف المفاوضات مع أعضاء حكومة الجمهورية الطرابلسية ، فقدم الزعماء الطرابلسيون مطالبهم فى ٨ أبريل ١٩١٩ ، تحت عنوان « مواد دستورية يعرضها مجلس الجمهورية الطرابلسية لتأسيس إمارة حرة بطرابلس الغرب تحت إشراف الحكومة الإيطالية على أن تكون الشريعة الغراء قانونها الأساسى » ، وقد تضمنت مطالب معتدلة للغاية ، فقد اكتفوا بطلب تنصيب أمير مسلم على الإمارة المزمعة ، وتأسيس برلمان يكون ثلاثة أرباع أعضائه من المسلمين والربع الباقى من الطليان واليهود ، وتأليف جيش وطنى من خمسة آلاف جندى تكون الخدمة فيه إجبارية ، وسك عملة عربية ، ووضع علم وطنى للإمارة ، وجعل التعليم الابتدائى إجباريا ، وتأسيس محاكم مختلطة للفصل بين العرب والطليان .

وفى نص لاحق أعرب الزعماء عن اعتراف إمارة طرابلس للحكومة الإيطالية بأنها تحت إشرافها ، وقبول أن يشرف على سياستها وشئون الحكم بها قنصل من قبل الحكومة الإيطالية ، وقبول إنشاء مراكز عسكرية إيطالية فى البلاد ، وأن يقوم رجال السلك الدبلوماسى الإيطالى بتمثيل المصالح الطرابلسية

فى الخارج ، ويرأس إيطاليون مجلس الخارجية ، ويعيَّن إيطاليون للإشراف على إدارات المالية والجمارك والمعارف والعدل ، والمحافظة على مصالح الطليان الاقتصادية .

وفى مقابل كل هذه التنازلات من قبل الزعماء الطرابلسيين ، لم يتمسكوا الا بضرورة المساواة فى المعاملة بين الطرابلسيين والطليان فى أنحاء المملكة الإيطالية .

صلح سوانى بن يادم فى ٢١ أبريل ١٩١٩ :

وقد انتهت المفاوضات يوم ١٤ أبريل ١٩١٩ ، حين دعا الوالى الايطالى جاريونى Garioni الزعماء الطرابلسيين إلى قصر الحكومة بطرابلس ، وأبلغهم قرارا للحكومة الايطالية يحمل تاريخ ٤ مارس ١٩١٩ ، يشتمل على أحد عشر مبدأً تتضمن :

الاعتراف بمنح الجنسية الإيطالية للعرب فى طرابلس ، والمساواة بين الطليان والطرابلسيين ، وخضوع الطرابلسيين لقوانينهم الخاصة بالأحوال الشخصية ونظام الإرث ، وضمان الحريات الشخصية ، والاعتراف بحق الطرابلسيين فى شغل الوظائف المدنية والعسكرية ومزاولة المهن الحرة ، وتعميم الضرائب العامة وضرورة موافقة المجالس الوطنية المنتخبة قبل البت فى نوع الضريبة التى يراد جبايتها وفى طرق توزيعها .

وقد كان من أثر ذلك البلاغ أن تم إبرام اتفاقية صلح بين إيطاليا والجمهورية الطرابلسية فى ٢١ من أبريل ١٩١٩ ، صارت تعرف من ذلك الحين باسم « صلح شلية الزيتونى » ، أو « صلح سوانى بن يادم » ، وتضمنت فيما تضمنت أن تسمى الحكومة حكومة القطر الطرابلسى ، ويدير القطر مجلس

حكومة مؤلف من ثمانية أعضاء وطنيين ينتخبهم مجلس النواب الطرابلسى من بين أعضائه ، ومن عضوين إيطاليين ينتخبهما الحاكم . ويرأس هذا المجلس حاكم عام يعين من قبل ملك إيطاليا ، ويسن قوانين البلاد مجلس نواب ينتخبه الأهالى يتمتع بما لمجالس الدول الأخرى المتقدمة من سلطات وحقوق ، ويكون للوطنيين التوظف فى الوظائف العالية ملكية وعسكرية وقضائية وصحية وغيرها بالامتحان . وفى آخر مايو أصدر الملك عما نويل الثالث ملك إيطاليا قانونا أساسيا ،تضمن قواعد الاتفاق ، وأعلن فى منشور رسمى يوم أول يونيو ١٩١٩ .

اتفاق الرجمة بين السنوسيين والإيطاليين ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ :

وقد اتجهت الحكومة الإيطالية بعد تسوية علاقاتها مع الطرابلسيين إلى التوصل مع حكومة السيد محمد إدريس السنوسى فى أجدابية ، إلى اتفاق مماثل يحل محل اتفاقية عكرمة المؤقتة سنة ١٩١٧ . وقد تلاقت رغبتها هذه مع رغبة حكومة أجدابية ، وإن اختلفت أهدافها ، وأسفرت المفاوضات التى جرت بين الطرفين عن عقد اتفاق الرجمة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٢٠ ، وبمقتضاه اعترفت الحكومة الإيطالية بإمارة السيد محمد إدريس ، وتقسيم القطر البرقاوى إلى قسمين : قسم ساحلى ترفرف عليه الراية الإيطالية وقسم داخلى يشمل داخلية البلاد ، ويضم واحة « جغبوب » و « الكفرة » و « جالو » و «أوجلة » ، ويخضع لإمارة السيد محمد إدريس السنوسى ، وتكون الإمارة وراثية مركزها أجدابية . وفى مقابل تلك يحل الأمير من جانبه الأدوار (معسكرات المجاهدين) وجميع الوحدات العسكرية فى مدة ثمانية أشهر ، ويحتفظ بألف جندى فقط للإمارة وحفظ النظام . وقد أدمجت فى صلب اتفاقية الرجمة القواعد والمبادئ ، التى تضمنها القانون الأساسى الذى وضعته الحكومة الإيطالية لبرقة ، على غرار القانون الأساسى لطرابلس ، مع مراعاة الظروف الاجتماعية لكل من الولايتين بما يعزز الروح القبلية لدى القبائل ، وإضعاف

نفوذ السنوسية داخل البلاد ، عن طريق تقسيم سكان برقة إلى قبائل وبطون ، لكل منها مجلس انتخابى يدعى مجلس الشيوخ ، يعاون شيخ المشايخ فى اختصاصاته .

وقد كان بعد اتفاقية الرجمة أن أجرى السيد محمد إدريس السنوسى الانتخابات لمجلس النواب المحلى ، وبدأت الدورة البرلمانية الأولى .

على أن الصعوبات أخذت تكتنف تنفيذ اتفاقية الرجمة ، بسبب ما نصت عليه من إلغاء « الأدوار » . فقد تعذر إقناع الأهالى بتسليم أسلحتهم وحل الأدوار نظراً لعدم ثقتهم بالإيطاليين وقد عزا الإيطاليون هذا الامتناع إلى السيد إدريس نفسه ، على حين أصر الرؤساء المشايخ على أنهم سوف لا يأمنون على حياتهم من إيطاليا إذا تشتتت المراكز وتفرقت الجموع الحاشدة فى الأدوار وسلم المجاهدون سلاحهم .

وقد أسفرت المفاوضات التى جرت حول هذه المسألة عن عقد اتفاق جديد فى « بو مريم » فى ٣٠ سبتمبر ١٩٢١ ، اتفق فيه الطرفان على إنشاء أدوار مشتركة من إيطاليين وسنوسيين بنسبة خمسة إلى أربعة فى كل من : الأبيار وتاكنس وسلنطة وعكرمة ، وأضيف إليها دور إيطالى فى المخيلة . على أن يعين فى كل دور ناظر سنوسى وناظر إيطالى . على أن الإيطاليين كانوا يعرفون أن إدارة برقة ، فيما عدا المدن ، كانت فى أيدى السنوسية ، وأن القتال سوف يدور فى يوم من الأيام . وجاءت تطورات الموقف فى طرابلس . ثم فى نظام الحكم فى إيطاليا ذاتها ، لتهدم كل هذه الاتفاقيات وتشعل نيران المقاومة من جديد .

٥ - الوحدة بين طرابلس وبرقة

فى ذلك الحين كانت الظروف فى طرابلس تضغط على يد فريق هام من زعمائها للاتجاه نحو الوحدة . فلم يبد الإيطاليون فقط عدم جديتهم فى بنود اتفاقية الصلح والقانون الأساسى ، ومخالفتهم لها ، بل استخدموا الذهب أيضاً لإيقاع الفرقة والفتنة والمنازعات بين الأعيان وزعماء العشائر . وإزاء ذلك سارع الزعماء الطرابلسيون دون انتظار ، إلى تشكيل « مجلس الحكومة » الذى نص القانون الأساسى على انتخابه بواسطة مجلس النواب المحلى .

وفى الوقت نفسه أنشأ الزعماء ، المؤيدون لرمضان السويحلى وسياسة عبد الرحمن عزام ،حزباً هو « حزب الإصلاح الوطنى » الذى نشر برنامجه يوم ٣٠ سبتمبر ١٩١٩ ، وينص على المحافظة على حقوق العرب كاملة كما وردت فى القانون الأساسى ، والعمل على تنفيذ هذا القانون بكل سرعة ، حتى تتاح الفرصة للتدرب على الاضطلاع بأعباء الحكومة الذاتية ، ومتابعة السعى لتحقيق التفاهم المثمر بين العرب والإيطاليين على أساس المساواة التامة ، والعمل على نشر التعليم وإنعاش الحياة الاقتصادية ، وتوزيع الثروة توزيعاً عادلا بين أفراد الشعب .

ومع أن هذا البرنامج الوطنى ، الذى يحمل مسحة اشتراكية ، والذى عبر عن الاتجاهات الشعبية للحركة الوطنية الطرابلسية ، قد لقى تأييد العرب ، فإن الزعماء المنافسين لرمضان السويحلى ألفوا بتحريض الإيطاليين جبهة مناوئة له ، من أعضائها أحمد المريض وعبد النبى بلخير ، اتحدت كلمتها على القضاء على نفوذه . وإزاء هذه الصعوبات اتجه زعماء « حزب الإصلاح الوطنى » إلى فكرة توحيد القطر الليبى كله (برقة وطرابلس) تحت إمارة السيد محمد إدريس السنوسى .

وفى تلك الأثناء أخذت الظروف تساعد على وحدة الزعماء الطرابلسيين بعودة المجاهد الطرابلسى القديم بشير السعداوى من الشام ، ووفاة رمضان السويحلى فى معركة دامية مع عبد النبى بلخير صاحب ورفلة ، وقد أثمرت الدعوة إلى الاتحاد عقد مؤتمر غريان فى نوفمبر ١٩٢٠ ، الذى كان الروح المحركة فيه عبد الرحمن عزام . وقد اتخذ المؤتمر القرارات التى كانت الأساس الذى انبنى عليه آخر الأمر التجاء القادة الطرابلسيين إلى الزعامة السنوسية لتوحيد الصفوف . فقد اتخذ المؤتمر قراراً بالعودة إلى خطة الجهادضد الإيطاليين إذا فشلت الجهود لحمل الطليان على احترام وعودهم ، وقرر إنشاء حكومة وطنية تتكفل بتنظيم الجهاد وتضطلع بمهمة تنفيذ قرارات المؤتمر . وأعلن أنه لإنقاذ البلاد من الانقسام والفوضى لابد من إقامة حكومة قادرة ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامى من الأصول ، بزعامة رجل مسلم منتخب من الأمة ، لا يُعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقره الأمة بواسطة نوابها ويشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة .

ولتنفيذ قرارات المؤتمر شكل الزعماء وفدين : أحدهما للتوجه إلى روما لبذل مجهود أخير مع الإيطاليين ، والآخر إلى أجدابية للتفاوض مع الزعامة السنوسية ، كما أسسوا حكومة وطنية لإدارة شئون البلاد الداخلية باسم « هيئة الإصلاح المركزية » يتولى رئاستها أحمد بك المريض . على أن المفاوضات مع الحكومة الإيطالية لم تلبث أن فشلت فى حين نجحت مع السنوسيين . فقد استمرت هذه المفاوضات الأخيرة فى شهرى ديسمبر ١٩٢١ ويناير ١٩٢٢ ، ووقع الطرفان فى ٢٢ من يناير ١٩٢٢ ميثاقاً عرف باسم « ميثاق سرت » يؤيد قرارات مؤتمر غريان ، وينص على أن الطرفين يريان أن مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقضيان بتوحيد الزعامة فى البلاد ، ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة . وتعهد الطرفان باتخاذ الوسائل اللازمة « لإنشاء الإمارةالليبية » . وقررا أنه بمجرد الانتهاء من انتخاب الأمير وتوليته بارادة

الأمة ، يتم انتخاب مجلس تأسيسى من الفريقين لوضع القانون الأساسى والنظم اللازمة لإدارة البلاد . واتفقا على أن يكون لكل منهما مندوب لدى الطرف الآخر للاشتراك فى سياسة البلاد وفى التدابير اللازمة للدفاع عن الوطن .

ولم يلبث الزعماء الطرابلسيون أن قرروا مبايعة الأمير إدريس السنوسى أميراً للقطرين : طربلس وبرقة . ووصل وفد من « هيئة الإصلاح المركزية »يحصل كتاب البيعة إلى أجدابية فى أكتوبر ١٩٢٢ ، وقد استند فيه الزعماء إلى أن الحكومة الإيطالية « وجهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا ، وجعلت من قوتها مبرراً للتصرف فى مصيرنا وحقوقنا الطبيعية ... الأمر الذى حملنا على ركوب الأخطار واقتحام الحروب المتوالية ، إلى أن نظفر بتحقيق أمنيتنا القومية ، ألا وهى تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية ، مع مجلس نيابى تنتخب الأمة أعضاءه ... لذلك نبايع سموكم أميراً للقطرين : طرابلس وبرقة ، على أن تقودهما إلى ما يحقق أمانيهما الشريفة الإسلامية المنوه عنها » .

وقد قبل الأخير البيعة بكتاب فى ٢٢ نوفمبر ١٩٢٢ ، تعهد فيه بالعمل على قاعدة الشورى ، وعهد إلى هيئة الإصلاح المركزية الاستمرار فى إدارة شئون القطر الطرابلسى حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد .

قيام الفاشية فى ايطاليا والقضاء على المقاومة فى طرابلس :

فى الشهر نفسه الذى وصل فيه كتاب المبايعة إلى الأمير إدريس السنوسى ، وهو شهر أكتوبر ١٩٢٢ ، كان موسولينى يزحف على روما ليقوم بانقلابه الفاشى المشهور الذى نقل كلا من إيطاليا والمقاومة الوطنية الليبية إلى مرحلة جديدة . فقد بادرت الحكومة الإيطالية الجديدة برئاسة موسولينى ، وقد أغضبها

قبول الأمير السنوسى البيعة ، يعزل الوالى الإيطالى القائم ، وتعيين وال آخر محله ، وزودته بسياسة جديدة تقوم على عدم التقيد بالتزامات اتفاق الرجمة والعمل على نزع السلاح من العرب . وكان الأمير إدريس يمر بأزمة صحية تهدد حياته فى ذلك الحين ، وتقرر سفره إلى القاهرة للعلاج . ولكنه عمل قبل سفره فى ديسمبر ١٩٢٢ على تنظيم المقاومة ضد الطليان ، فعهد بالشئون السياسية والعسكرية فى برقة إلى السيد عمر المختار نائبا عنه فى تنظيم الأدوار ، كما أقام أخاه السيد رضا نائباً عنه فيما يتعلق بالشئون الدينية والسنوسية والعائلية ، وأنشأ هيئة مركزية فى برقة من رؤساء القبائل للاضطلاع بأعباء الإدارة .

وما أن غادر الأمير أجدابية إلى مصر حتى أخذ الوالى الإيطالى الجديد لبرقة فى حل الأدوار ، وأخذت الهيئة المركزية البرقاوية تعد العدة لتهيئة وسائل النضال ضد الطليان ، ووافقت على اقتراح بشير السعداوى بتأليف جبهة متحدة من برقة وطرابلس لمتابعة النضال ، ثم وقع الحاضرون على قرار بإثارة الحرب ضد إيطاليا ، وغادر السعداوى برقة إلى طرابلس فى ٩ مارس ١٩٢٣ لهذا الغرض ومعه السيد صفى الدين من قادة رؤساء السنوسية العاملين .

على أنه فى تلك الأثناء كان الإيطاليون فى طرابلس قد عززوا قواتهم بفرقتين جديدتين ، وشنوا هجوماً على المجاهدين فى طرابلس ، وألحقوا بهم الهزيمة ، وسقط فى القتال محمد سعدون السويحلى ، أخو رمضان السويحلى ، وكان قائداً عسكريا هاما . وبقيت مصراته وترهونة . فتوجه بشير السعداوى إلى سرت ثم إلى وادى نفد ، بين مصراته وورفلة ، حيث معسكر المجاهدين العام ، وحاول حشد جموع المجاهدين حول السيد صفى الدين تحت لواء السنوسية . ولكن السيد صفى الدين لم يستطع توحيد كلمة القبائل ، بسبب تغلب انقساماتها فى تلك اللحظات الحرجة ، وقد أدى ذلك إلى انحلال المقاومة ضد الطليان وانسحاب صفى الدين إلى جالو ثم إلى الجغبوب فى سبتمبر ١٩٢٣ .

وأما بشير السعداوى فقد استطاع أن يؤسس مركزاً للجهاد « فى قصر

بوهادى » ، وتسلم الحكم فى سرت ، وجمع شتات المنهزمين اللاجئين ألى سرت من طرابلس ، وكان عددهم يبلغ نحو خمسين أو ستين ألفا . وثبت المجاهدون فى مصراتة وترهونة أقدامهم . ولكن الطليان استطاعوا بقواتهم الجرارة وطائراتهم القضاء على المقاومة شيئا فشيئا ، ثم هاجموا فى النهاية ورفلة ، فانحلت المقاومة تماما ، واضطر بشير السعداوى إلى مغادرة سرت فى عام ١٩٢٤ ، بعد أن قضى بها عاما تقريبا . فكان خروجه من البلاد إيذانا بأن « الثورة قد انتهت فى طرابلس وأن الأمر استتب للطليان . وبقيت برقة .

٦ - مقاومة عمر المختار

كانت الأمور فى برقة تجرى على نحو مختلف ، بفضل وحدة الزعامة السنوسية . ففى ٦ مارس بدأت السلطات الإيطالية تظهر عزمها على العدوان ، فحل الوالى الجديد أدوار : الأبيار ، وتكنس ، وسلنطة ، والمخيلة ، وعكرمة ، وأعلن فى افتتاح الدورة البرلمانية فى اليوم نفسه عدم إخلاص السنوسيين للحكومة الإيطالية ، وعزمه على اتخاذ تدابير لاحترام القوانين واستتباب النظام .

وفى ٢١ من أبريل ١٩٢٣ شنت القوات الإيطالية هجومها باحتلال أجدابية مقر الإمارة السنوسية ، التى سقطت دون مقاومة لعدم إمكان الدفاع عنها . وفى ٢٤ من أبريل أعلن الوالى أن كل الاتفاقات مع السنوسية قد أصبحت لاغية ولا أثر لها . كما أعلن فى أول مايو أن السنوسية قد أصبحت مجرد طريقة كغيرها من الطرق الإسلامية ، ويجب أن يظل نشاطها دينيًّا محدوداً .

وانسحب المجاهدون فى الجنوب ، واتخذوا من زاوية القطوفية مركزا لمقاومة الطليان ، ووسعوا دائرة عملياتهم لتشمل منطقة الجبل الأخضر بأكملها تحت قيادة السيد عمر المختار ، ولكن امتداد العمليات العسكرية الإيطالية دفع السيد عمر المختار إلى التوجه إلى مصر للتشاور مع الأمير إدريس فى الخطط والإمدادات اللازمة . وفى أثناء وجود عمر المختار بمصر حقق المجاهدون نصراً على القوات الإيطالية فى معركتين ، الأولى فى بير بلال ، والثانية فى البريقة .

وكانت المقاومة عند عودة عمر المختار لا تتجاوز برقة الحمراء وبرقة البيضاء . وقد قر الرأى على أن ينشئ عمر المختار فى الجبل الأخضر قاعدة

عسكرية ، يكون بها جيشاً قوياً ، ويشكل فيها الأدوار . واستطاع بالفعل تشكيل ثلاثة أدوار هى أدوار : البراعصة ، والعبيد ، والحاسة . وعين عليها قوادها ، وجعل نفسه القائد الأعلى ، وبذلك بدأت المقاومة التى استمرت طوال ثمانية أعوام متصلة .

وفى المرحلة الأولى من القتال التى استمرت فى عامى ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ ، وسع المجاهدون نشاطهم فى الجبل الأخضر ، لتخفيف ضغط الطليان على إخوانهم فى أدوار البرقتين ، وكان لقبائل العبيد والبراعصة والحاسة والعواقير أكبر نصيب فى هذه العمليات العسكرية ، ولمع اسم عمر المختار كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر . ولم يستطع الطليان فى هذه المرحلة القيام بنشاط حربى ملحوظ فى منطقة الجبل الأخضر ، واكتفوا بمحاولة تطويق المنطقة وعزلها عن المناطق الأخرى .

ثم اتجه الطليان إلى احتلال مركز من أهم المراكز التى كانت تمد المجاهدين بالمؤن والذخائر ، وهو واحة الجغبوب . وكانت واحة جغبوب أرضاً مصرية يديرها السيد إدريس السنوسى بطريق الوكالة طبقاً لمعاهدة ١٦ من أبريل ١٩١٧ . ولما كان القيام بعمليات عسكرية ضدها يعد اعتداءً صريحا على مصر ، التى حصلت على استقلالها بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، ومن المنتظر أن ترفض تعديلا يضر بمصالح كفاح برقة ضد الإيطاليين ، فقد ضغطت إيطاليا على بريطانيا لتضغط بدورها على مصر للتنازل عن واحة جغبوب . وكانت الحكومة المصرية حكومة ضعيفة تحت رئاسة أحمد زيور ، فقبلت الضغط فى ٢ ديسمبر ١٩٢٥ – مما أثار كثيرا من السنوسيين الموجودين بمصر ، ودخلت جغبوب ضمن الحدود البرقاوية .

وقد أخذ الطليان بعد ذلك فى اتخاذ العدة لاحتلال تلك الواحة ، وكان يقيم بها حينذاك جماعة كبيرة من السنوسيين على رأسهم السيد صفى الدين ، فسارعوا إلى الارتحال عنها إلى مصر وإلى برقة ، واحتل الإيطاليون جغبوب

دون مقاومة فى ٨ فبراير ١٩٢٦ ، مما أضعف مركز السنوسيين عموماً . ومع ذلك فلم يستطع الإيطاليون خلال العمليات التالية سوى احتلال جردس جرارى وخولان ، ومنع المجاهدون كل اتصال بين برقة وطرابلس . وحاول الإيطاليون استمالة عمر المختار وبذل الوعود لقبائل الحاسة ، والعبيدات ، والدرسة ، والعبيد ، والعرفة ، والبراعصة دون جدوى . وحتى آخر عام ١٩٢٦ لم تستطع القوات الإيطالية التغلب على المقاومة .

على أنه ابتداءً من عام ١٩٢٧ ، وبعد تعزيز الإيطاليين قواتهم وتعيين وال جديد ، هو تيروتزى Teruzzi ، اتجهوا إلى الاشتباك مع الوطنيين فى الجبل ، واحتلال المراكز الصغيرة حول أجدابية . وقد أسفر نشاطهم العسكرى بقيادة « شيى » عن احتلال « مسوس » فى ١٦ مارس ١٩٢٧ ، ثم « ساونو » بعد يومين ، وأخيرا « جوف المطر » يوم ٢٧ مارس ، ولكن المجاهدين أنزلوا بهم هزيمة بالغة فى معركة « الرحيبة » ، فتوقفت العمليات العسكرية فى الجبل الأخضر لمدة شهر تقريباً ، وعزل « شيى » وتولى القيادة الجنرال « متزتى » .

واستأنف الإيطاليون عملياتهم ، فهزموا المجاهدين فى معركة « قبر الظاهر » فى ٢٧ - ٢٨ أبريل ١٩٢٧ ، واستمرت المعارك بين الفريقين فى الجبل الأخضر فى منطقة « وادى الكوف » من ٢ إلى ١١ مايو . وجرت محاولة السلطة الإيطالية للتفاهم مع المغاربة فى أجدابية ، انتهت باستسلام المغاربة فى الشماخ والعواقير فى سبتمبر ١٩٢٧ ، فمهد ذلك للإيطاليين احتلال المراكز التى ظلت خارجة عن سلطتهم فى منطقتهم ، فاحتلوا القطوفية دون مقاومة فى ٢٤ سبتمبر ، والعقيلة فى ٢٩ سبتمبر ، ولما كان قد سبق لهم احتلال ساونو وجوف المطر ، كما احتلوا جغبوب ، فقد انقطعت الموارد من الغرب والشرق عن جالو ، مقر السيد رضا ، وكانت ، لتوغلها فى الصحراء ، ذات موارد قليلة . وعندئذ أرسل الطليان إلى السيد رضا يخيرونه بين القتال أو الرحيل أو التفاوض . وقبل السيد رضا التفاوض على أساس إبقاء الزوايا ، واحترام الإخوان السنوسيين ، والاعتراف بحقه فى تعيين مشايخ الزوايا ، ثم بقاء السيد فى بنغازى . وقبلت

وزارة المستعمرات عرض السيد رضا ، ولكنها لم تلبث أن غدرت به وقامت بنفيه إلى صقلية بعد تسليمه .

وقد استطاع الإيطاليون ، بعد عدة هزائم قاسية فى الفزان ، احتلال زلة فى ٢٢ فبراير ١٩٢٨ ، ثم آبار تقرفت فى ٢٥ فبراير ، ثم واحة أوجلة فى ٢٣ فبراير ، وواحة جالو يوم ٢٥ فبراير ، ومرادة فى ١٨ مارس . وبذلك استطاعوا عزل المجاهدين بقيادة عمر المختار فى الجبل الأخضر عن مصر من الناحية الشرقية ، وعن مراكز السنوسية الباقية فى الجنوب فى فزان والكفرة .

على أن هذه الانتصارات لم تفت فى عضد عمر المختار ، الذى أرغم الطليان على الخروج بجيوشهم فى ٢٢ أبريل لمقابلته ، وأنزل بهم الهزيمة بعد معركة دامت يومين . وفى يونية أبيدت قوة إيطالية أرادت مهاجمة قافلة من البراعصة خرجت من السلوم محملة بالعتاد قاصدة الجبل الأخضر ، كما أنزل المجاهدون هزيمة أخرى بالطليان فى سبتمبر من العام نفسه ، فدلت هذه الأعمال على أن الثورة مازالت مستمرة فى الجبهة العربية من سرت شمالا إلى الفزان جنوبا ، وإلى جالو شرقاً ، فضلا عن مقاومة المجاهدين فى الجبل الأخضر ، واضطرت الحكومة الفاشية إلى تغيير سياستها ، بما أدى إلى استقالة وزير المستعمرات الإيطالى فى روما ، و « ديبونو » والى طرابلس ، وتيروتزى والى برقة فى ديسمبر ١٩٢٨ ، وإعلان موسولينى توحيد الإدارة فى القطرين الليبيين ، وتعيين المارشال بادوليو حاكما عاما فى يناير ١٩٢٩ ، وبذلك بدأت مرحلة حاسمة .

فقد أصدر بادوليو عند وصوله إلى طرابلس منشورا إلى أهالى طرابلس وبرقة فى ١٥ فبراير ١٩٢٩ ، يعلن فيه العفو عن الأفراد الذين يسلمون سلاحهم مختارين ، وأسقطت الطائرات الإيطالية هذا المنشور فى جميع أنحاء القطر الليبى . ثم طلب فى أوائل مارس الاجتماع بالسيد عمر المختار للتفاوض فى شروط الصلح ، وقد اشترط السيد عمر أن تقدم الحكومة الإيطالية برهاناً على صدق نواياها بإطلاق سراح السيد رضا وإرجاعه إلى بنغازى ، فوافقت

الحكومة الإيطالية ، وعاد السيد رضا إلى بنغازى يوم ٢١ مارس . وجرت مفاوضات طويلة منذ ٢٠ مارس بين السيد عمر ومندوب الحكومة الإيطالية بحضور المشايخ . وفى يوم ٢٩ يونية قدم المختار شروطه النهائية رسميًّا فى اجتماع سيدى رحومة ، وكانت تقوم على تمهيد الطريق لإعادة تنظيم البلاد على أساس اتفاقات الطليان مع السيد إدريس فى عكرمة والرجمة ، وإعادة العمل بالقانون الأساسى لبرقة الذى ألغاه الطليان ، مع حضور مندوبين من الحكومة المصرية والتونسية لشهود المباحثات . وقد قبل بادوليو هذه الشروط واتفق الفريقان على عقد هدنة لمدة شهرين حتى يتسنى لكل منهما مخابرة مرجعه .

ولكن الإيطاليين كعادتهم أخذوا يبذرون بذور الشقاق بين الوطنيين ، واستطاعوا أن يحصلوا على توقيع السيد حسن الرضا على شروط صلح تختلف عن شروط عمر المختار فى سيدى رحومة ، وحين رفض السيد عمر هذه الوثيقة ، انفصل السيد حسن الرضا بجماعته من البراعصة والدرسة ، وعندئذ تهيأت الفرصة للطليان للمماطلة . وفى ٢٠ أكتوبر أصدر عمر المختار نداءً مشهوراً إلى أبناء وطنه ألقى فيه التبعة على أعدائه .

ولم تلبث أن استؤنفت العمليات العسكرية بهجوم شنه المختار على قصر بنقدم ، وقبض على « الدرك » الايطالى فى نوفمبر ١٩٢٩ ، وجرت عدة مناوشات خلال شهرى نوفمبر وديسمبر ، وفى شهر يناير ١٩٣٠ انقلب الإيطاليون على السيد حسن الرضا ، وتمكنوا من القبض عليه يوم ١٠ يناير ، ثم نفيه خارج الأراضى الليبية . وفى خلال شهرى فبراير ومارس جرت عدة معارك فى منطقة الجبل الأخضر ، فى حين كانت القوات الإيطالية بقيادة جرازيانى تحرز الانتصارات فى منطقة الفزان ، فقد احتلت فى ١٣ يناير ١٩٣٠ « واو الشعوف » ، وفى ٢٤ من نفس الشهر احتلت مرزق ، وفى ٢٥ فبراير احتلت غات ، وبسقوط مرزق وغات انتهت مقاومة المجاهدين فى الفزان .

وسرعان ما بدأت مرحلة جديدة فى إخضاع البلاد من قبل القوات

الإيطالية ، تميزت بأشد ألوان العنف والقمع الفاشى الوحشى . فبناء على المخطط الذى وافق عليه موسولينى ، بدأ جرازيانى ، الذى عاد يوم ٢٧ مارس نائبا للوالى فى برقة ، فى عزل الأهالى الخاضعين للسلطة عن المجاهدين ، عن طريق حشدهم فى معتقلات كبيرة امتدت من العقيلة إلى السلوم ، ثم أخذ فى حل زوايا السنوسيين ومصادرة أملاك الزوايا وأوقافها ، ومنع كل اتصال بين السنوسيين وبين الأهالى الخاضعين للسلطة ، ثم اتخذ عدة إجراءات قضائية تخول إصدار حكم الإعدام على من تثبت عليه تهمة الاتصال بالمجاهدين ، وتنفيذ هذه الأحكام فوراً ، وأنشأ ما صار يعرف فى تاريخ الاستعمار الإيطالى باسم « المحكمة الطائرة » فى أبريل ١٩٣٠ ، التى كانت تنتقل على متن الطائرات من مكان لآخر لإصدار الأحكام السريعة ، وتنفيذ هذه الأحكام على يد السلطات المحلية فوراً . وفى الوقت نفسه عمد إلى إغلاق الحدود المصرية لمنع الإمدادات عن المجاهدين فى الجبل الأخضر وفى الواحات .

وفى خلال الفترة من أبريل حتى ديسمبر ١٩٣٠ جرت اشتباكات غير حاسمة بين الإيطاليين وقوات عمر المختار فى الجبل الأخضر تمكن فيها الإيطاليون من الاستيلاء على منطقة الفايدية فى ١٤ يونية ، واضطر المختار إلى نقل مركز عملياته إلى الناحية الشرقية (فى الدفنا) لقربها من الحدود المصرية ، وأخذ يهاجم الإيطاليين فى منطقة عين غزالة . ولكن فى ٢٠ سبتمبر ١٩٣٠ جرت معركة كرسة المشهورة ، التى استشهد فيها خير قواد عمر المختار السيد الفضيل بو عمر ، وإلى جانبه أربعون شهيداً .

وفى الوقت نفسه أخذ الإيطاليون يعدون لاحتلال الكفرة ، واتخذوا ، « جالو » قاعدة لعملياتهم ، ثم بدءوا فى الزحف فى آخر ديسمبر . واشتبكوا مع المجاهدين ، الذين قاتلوا ببسالة فائقة ، فى « واقعة الهوارى » يوم ١٩ يناير ١٩٣١ وأنزلوا بهم الهزيمة ، واحتلوا الكفرة ، وبذلك انتهت كل مقاومة جدية فى برقة .

ثم أخذ جرازيانى منذ شهر فبراير ١٩٣١ فى إغلاق الحدود المصرية إغلاقاً

تاماً ، عن طريق مد سور من الأسلاك الشائكة على طول هذه الحدود من « المساعد » إلى ما بعد الجغبوب بمسافة قصيرة ، وقد بلغ طوله ٣٠٠ كيلو مترا ، واستمر ذلك إلى سبتمبر ١٩٣١ . وفى الشهر نفسه أى فى ١١ سبتمبر وقع السيد عمر المختار أسيراً فى يد قوة من الخيالة الإيطاليين بالقرب من سلنطة ، ونقل إلى بنى غازى حيث حوكم محاكمة صورية أمام محكمة عسكرية إيطالية ، قضت بإعدامه ، ونفذ فيه الحكم يوم ١٦ سبتمبر ١٩٣١ ، وبذلك تخلص الإيطاليون من مجاهد كبير وعدو لدود .

ومع أن النضال استمر فى الجبل الأخضر بعد إعدام المختار ، فإنه لم يتجاوز أربعة أشهر ، ثم أخمد سريعا ، ودانت برقة بأسرها والقطر الليبى للاستعمار الإيطالى الفاشى بعد كفاح طويل استمر عشرين عاماً .

مراجع للاستشارة :

د . محمد فؤاد شكرى : السنوسية ، دين ودولة (دار الفكر العربى ١٩٤٨) .

ز . ب . ياخيموفتش : الحرب التركية - الإيطالية ١٩١١ - ١٩١٢ ، ترجمة د. هاشم صالح التكريتى (منشورات الجامعة الليبية - بيروت ١٩٧٠) .

د. جلال يحيى : المغرب الكبير ، الفترة المعاصرة وحركات التحرير والاستقلال (الدار القومية ١٩٦٦) .

د. أمين سعيد : ثورات العرب فى القرن العشرين (دار الهلال) .

ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية (دار العلم للملايين ١٩٦٥) .

د. هنرى أنيس ميخائيل : العلاقات الإنجليزية الليبية (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠) .

Pritchard, Evans: The Sanusi of Cyrenaica (Oxford University Press, London 1949).